التّفرقة بين الماهية والوجود في فلسفة ابن سينا.

مقالة من تأليف لطفي خيراللّه.

ذكر **أرسطو** في أوّل مقالة الجيم ممّا بعد الطّبيعة بأنّه يوجد علم موضوعه الوجـود بما هو موجـود، وهو الفلسـفة الأولى[1]. وهـذا التّعريف شـأنه أنّه يحتمل تـأويلين ظـاهرين وهما : إمّا أنّه يُـرَادُ بـالوجود من حيث هو موجـود، الوجـود الأتمّ والأشرف في مراتب الوجود كلّها، أي صورة الصّـور، والمبدأ الأوّل، والمحرّك الّذي لا يتحـرّك في رأي أرسـطو، فيحصل أنّ موضوع الفلسفة الأولى لا يخرج عن أن يكـون موضوعا جزئيّا مخصوصا كسائر العلوم الأخـرى، وإن كـان موضوعه هو أكمل من مواضيعها كلّها[2].
وإمّا أن يُرَادَ به **عموم الوجود** الّذي هو سَـارٍ في الأشـياء كلّها، وهذه الأشياء إذا نُظِرَ إليها فيما يخصّها كانت مواضيع علوم جزئيّة تختصّ باختصاصـها، وإذا نُظِـرَ إليها فيما يعمّها كلّها، كان ما يعمّها هو هذا الموضوع الأوّل لعلم الوجود بما هو موجود، لأنّه علم لا يفحص في مَوْجُودٍ مَوْجُـودٍ من جهة ما هو هو، و في ما يعرض له من خواصّ تلزمه بما هو هـو، وإنّما ينظر في الموجود من جهة ما هو موجود، أي أنّه إنّما نظره في **وجود** الشّيء، لا في **الشّيء** الموجـود. وهـذا الطّريق الثّـاني في تأويل ما سـبق من تعريف أرسـطو للفلسـفة الأولى هو ممّا كـان قد ذهب إليه **الشّـيخ الرّئيس ابن سينا**[3].

ولأنّ الوجـود ما خُصَّ بكونه موضـوعا أوّلا للفلسـفة الأولى إلاّ لأنّ كلّ الموجـودات إنّما تنـدرج تحتـه، وإن كـان اندراجها من ضرب غير ضـرب انـدراج الأنـواع تحت جنس

واحد، وإنّما فقط كأنّه كـذلك[4]، فهي إذًا كلّها إنّما هي أقـلّ بيانا منه، فهو أظهر منها جميعا، فلا شيء إذًا **بأعرف من الوجود**. وإذا كان لا شيء أعـرف من الوجـود، فلا شـيء قد يعرّف الوجود، ولا دليل عليه إلاّ نفسه، فإذًا الوجـود هو بديهيّ، وهو أوّل ما تستحضره النّفس من معـنى[5]. وإذا لم نعــوّل إلاّ على هــذا المعــنى البــديهيّ الّــذي هو أوّل ما تستحظره النّفس، واقتصرنا على النّظر فيـه، فإنّه سـوف يتبدّى لنا تبـدّيا ظـاهر البيـان بـأنّ الوجـود بما هو هـو، غـير الوجود بنحو ما، وأنّ الأوّل مطلق، والثّاني مقيّد، وتقيّده لا يكون له بما هو هو، وإنّما بما هو وجود مُخَصَّصٌ، وتخصّـص الوجود إنّما يعتوره عند انضياف معنى آخـر، وهـذا المعـنى الآخر هو غــير الوجــود. لكن هــذه التّفرقة بين الوجــود والمعـــنى الآخر لم تـــزل بعد غـــير التّفرقة الحقيقيّة المقصـودة بين الماهية والوجـود. من أجل ذلـك، فإنّه قبل أن نخصّها بالحـديث، فقد تـوجّب، بـادئ ذي بـدء، أن ننظر في معنى الماهية :

لماّ نقل العرب فلسفة اليونان ومنطقهم إلى العربيّة، وجـدوا عبـارتين اثنـتين عنـدهم، وإن اختلفتا في لفظهمـا، فإنّهما قد بــدتا ذواتي معــنى واحــد، وهما عبــارة **أوزيا**، وعبـارة **تو اسـتي**. وقد غلب نقلهم للمصـطلحين ذينـك، تارة بعبارة الجوهر، وطورا بعبارة الماهية. وقد قلنا أنّه قد بدتا ذواتي معنى واحد، وبخاصّة عند أرسـطو، لأنّه كـان قد دأب المعلّم الأوّل أن يســـتعمل، على نحو ســـواء، كلتا اللّفظــتين، ليــدلّ بهما أبــدا على معــنى القــائم بالــذّات والمقوّم للذّات. وإن هو ليس كلّ شيء هو قـائم بالـذّات. وكذلك فـإنّ المقـوّم للـذّات هو لكونه مقوّما لها فهو أيضا أحـرى بـأن يكـون جـوهرا[6]. فليس إذًا أيّ شـيء قـوّم أيّ شــيء فهو أوزيا أو تو اتســي ! فالماهية إذًا عند أرســطو هي معـنى **عين معـنى الوجـود** مـأخوذا في مرتبة من

مراتبه يكـــــون فيها في غاية التّقـــــدّم. ولكنّه لمّا تلقّى الفلاسفة المسلمون العبارتين هاتين، وبخاصّة سابقهم والملقّب عندهم بالمعلّم الثّاني، أي **الفارابي**، فإنّه قد خَصَّصَ معنى عبارة الجوهر من عبارة الماهية، أو في الأقلّ، فإنّه قد حمّل هذه العبارة الأخيرة معنى أعمّ من المعنى اليوناني القديم. فكلّ جوهر فله ما هية، ولكن ليس كلّ ماهية فهي جوهر، وليس يقوّم الجوهر إلاّ جوهر، ولكن ليس لا يقوّم ماهية إلاّ جوهر. إنّ الجوهر هو القائم بالذّات المتحقّق في الخارج، وهو أيضا المقوّم للقائم بالذّات المتحقّق في الخارج. والجوهر إذا كان مقوّما فهو لا يقوّم إلاّ جوهرا، فيسمّى بما هو مقوّم جزء ماهية، والمقوّم كلّه يسمّى ماهية، ويلزمه لأنّه قوّم جوهرا أن يكون نفسه جوهرا. فكون الشّيء ماهية لا تلحقه بالقياس إلى وجوده بإطلاق، وإنّما بالقياس إلى وجوده إلى شيء آخر. لذلك فقد عُرِّفَتِ الماهية بأنّها **ما به الشّيء هو هو**. فلم يقولوا بأنّها ما به الشّيء يكون غنيّا بنفسه وجودا، لأنّ ذلك كان يردّ معنى الماهية إلى المعنى الأرسطيّ القديم المرادف للجوهر، بل قالوا ما به الشّيء، والشّيء مقولة عامّة، وهي في أضيق معانيها الممكنة الّتي لو رمنا أن لا نجعلها أعمّ من مقولة الوجود كما رامه المتكلّمون المسلمون[8]، على خلاف اليونان قديما، الّذين إنّما كان مُسَلَّمًا عندهم تساوق الشّيء والوجود، قلت : لو رمنا أن نجعلها كذلك، فهي مُسْتَغْرِقَةٌ لا محالة لسائر مقولات الوجود الأخرى غير الجوهر، وهي كلّها أعراض. فإذًا لنعاود هذا التّعريف الفلسفيّ الإسلاميّ للماهية : إنّه ما **به الشّيء هو هو**، وإذا قد تبيّن أنّ الشّيء قد يكون جوهرا، وقد يكون عرضا، فإنّه ما قوّم العرض هو أيضا ماهية، أو بعبارة أخرى إنّ ما به عرض ما هو هو، هو أيضا ماهية ذلك العرض. فيخرج معنى الماهية عن معنى الجوهريّة كما كان ثابتا في فلسفة اليونان،

ليصير معناها ما به الشّيء هو هـو، لا من حيث هو موجـود بنحو ما، أي بنحو الجوهر.

والحقّ أنّ ابن سينا إنّما هو عالة على أسلافه، و لا سيّما على الفـــارابي، في تخليصه معـــنى الماهية من معـــنى الجوهريّـــة. وهـــذا التّخليص كـــان طريقا لا مندوحة عنه للوصـول إلى التّفرقة الّـتي حصّـلها ابن سـينا بعـدها، بين الوجـود والماهيـة. وذلك لأنّه إنّما لمزيّة ذلك التّخليص فقد أمكن أن نـــوطّئ لميتافيزيقا ذات مرتبة أخـــرى تخـــالف مخالفة جوهريّة المصـادرة الأولى الّـتي انبنت عليها كـلّ الميتافيزيقا اليونانيّـة، وهي مصـادرة أنّه لا حقيقة خـارج الموجود، وأنّه لا علم إلاّ بالموجود. فكيف كان ذلك ؟

إنّ كـلّ شـيء له ماهيـة، والماهية هي ما به الشّـيء هوهـــو؛ وذلك لأنّه ليس كـــلّ ما في الشّـــيء، كـــان ما به الشّيء هوهو، والمـراد بما به الشّـيء هو هـو، ما لو **رُفِعَ** حقيقةً أو توهّمًـا، ارتفع الشّـيء نفسه ليس فقط من حيث وجـوده، بل من حيث نفس تصـوّره. فـأنت اعْتَبِـرْ مثلا في ذهنك مُثَلَّثًا، فأيّ شيء هو لو رفعته ذهنا من المثلّث انعدم المثلّث بما هو مثلّث ؟ الجـــواب : إنّه حقيقة كونه شـــكلا مسطّحا مؤلّفا من ثلاثة أضلاع ! فالشّكل المسطّح وثلاثيّة الأضـلاع عُـدَّتَا أجـزاء ماهية المثلّث، وتأليفهما هو ماهيته نفسـها. وكـلّ ما خلا هـاتين الصّـفتين فلو أنت افترضت ارتفاعهما عن المثلّث فهل امتنع تصـوّر حقيقته ؟ كلاّ البتّة ! فلا أحد من النّـــاس يمكنه أن يـــدرك ما المثلّث إلاّ إذا أدرك كونه شـكلا مسـطّحا ذا أضـلاع ثلاثـة؛ ولكن كم هم أولائك النّـاس الّـذين وإن أدركـوا معـنى المثلّث، فهم لا يتصـوّرون البتّة صـفته كـون مجمـوع زوايـاه تسـاوي أبـدا زاوتين قائمتين. فهذه الصّفة الّتي إنّما من شأن الهندسـيّ أن يـبرهن عليهـا، مهما رام ذهن رفعها عن المثلّث، فـإنّ

حقيقة المثلّث لَتَبْقَى حاضـرة أبـدا في ذهنـه. فـإذًا هـذه الصّفة، وإن كـانت لا زمة أبـدا للمثلّث من حيث هو مثلّث، لكنّها **ليست البتّة بمقوّمة لحقيقته بما هو هو**.

وبعد أن بيّنّا هـذا الأمر وبسـطنا معـنى الماهيـة، لننظر كيف حصّل ابن سينا تفرقته بين الماهية والوجود.

لقد قلنا إنّ الوجود هو معنى بديهيّ وأوّل ما تستحظره النّفس، ولأنّه أظهر الأشـياء وأحقّها معرفـة، فإنّه قد امتنع بتاتا تعريف الوجـود، لأنّه ما التّعريـف، ليت شـعري، إلاّ تحصـيل مجهـول بمعـروف !؟ وإذا كـان الوجـود أعـرف الأشياء، فلا شيء أعـرف منـه، فلا شـيء قد يعرّفـه، فـإذًا الوجود لا يُعَرَّفُ. وإذ امتنع تعريف الوجود، فقد بقي سـبيل آخر في التّطـرّق إليـه، وهو طريق التّقسـيم. وتقسـيم الوجـود ذو طرائق كثـيرة، ولكن إنّما نحن سـنقف عند تقسـيمه بحسب مراتبـه. إنّ هنـاك تقسـيما أوّلا وكبـيرا للوجـود بحسب مرتبتـه، وهو تقسـيمه إلى **الوجـود الذّهنيّ** و**الوجود العينيّ**، والوجـود العيـنيّ هو وجـوده في الخـارج، والوجـود الـذّهنيّ هو حصـول الأمر قائما في الذّهن. و إن كان الأمر حاصلا في الذّهن فهو إمّا أن يكـون معقولا، أو متخيّلا، أو مدركا إدراكا حسّيّا مشتركا. وإن كان موجودا في الخارج، فهو إمّا أن يكون مـادّة محسوسـة، أو جوهرا معقولا، وهذا الجوهر المعقول هو نفسه ذو مراتب، أخسّها جوهر العقل الإنسانيّ، ويتوسّطها العقل السّماوي، وأعلاها العقل الإلاهيّ. وبالجملة، فالوجود لا يخرج عن إمّا أن يكون ذهنيّا، وإمّا عينيّا.

وهاهنا، فنحن نسأل هـذا السّـؤال : إذا كـان شـيء ما لِزَامًا عليه أن يكـون إمّا في الـذّهن، أو في الخـارج، فهل معنى كونه في الخارج، أو كونه في الذّهن، هو **أيضا** جـزء

مقــوّم لماهيّة ذلك الشّــيء أم لا ؟ أي **هل نَحْـوُ وجــود الشّيء هو جزء لما به ذلك الشّيء هو هو** ؟ الجواب : كلاّ إطلاقا ! وأيسر دليل على هذا الجواب هو أنّه لو كان على خلافـه، أي لو كـان نحو وجـود الشّـيء مقوّما لحقيقة الشّيء، وحقيقة الشّيء هي ما به الشّيء هو هو، و قد كنّا قد رأينا أنّ ما به الشّيء هوهو لا يرتفع أبدا، لكـان إذا كـان شيء ما موجودا بنحو من الأنحـاء لاَ مْتَنَـعَ أن يُتَصَـوَّرَ على خلاف حال وجوده، فيكون إذا كان موجــودا في الواقع فهو يكون ممتنعا عليه أن لا يوجد كذلك أبدا، وإذا امتنع عليه أن يوجد كذلك أبدا، فإنّه بطريق الأولى ألاّ يكـون إلاّ موجـودا على ذلك النّحو أبدا، فتصير كلّ الأشـياء أبديّة الوجـود وهو خلاف الظّاهر من أمر كثير من الأشياء. إنّ هـذا الجـواب القــريب الأوّل. ولكن نزيد عليه هــذا الجــواب الفلســفيّ الثّاني :

لقد ذكرنا أنّ ماهية الشّيء أو جزءها المقوّم لها هو ما لو افترضــناه مرتفعا ارتفع معه نفس حقيقة الشّــيء، كما لو ارتفعت ثلاثيّة الأضـــلاع من المثلّث فـــيرتفع بارتفاعها نفس حقيقة المثلّث. ولكن للمثلّث أنحـــــــاء ممكنة في الوجــود، فهو قد يكــون موجــودا في الــذّهن، وقد يكــون موجــودا مرســوما في لوحــة، وقد يكــون قد صــنعناه من خشب أو حديد... فكــون المثلّث، إذًا **موصــوفا بنحو ما من أنحــاء الوجــود تلك**، هل عســاه أن يكــون **مُقَوِّمًا لنفس ماهية المثلّث**، أي لو أنّ الذّهن قد اعتبر المثلّث وقد رُفِعَ عنه مثلا كونه موجـودا في الـذّهن أو في الواقـع، فهل ترتفع حقيقة المثلّث بما هي هي ؟

الجـواب : كلاّ بتاتا ! لأنّه لو كـان كـذلك لأدرك الـذّهن أنّ المثلّث الموجـــــود في الـــــذّهن مثلا، هو حقيقة تختلف بالماهية عن المثلّث الموجـــــود في الحقيقـــــة، كإدراكه **لاختلاف ماهية المربّع عن ماهية الـــــدّائرة**. ولكن

الــذّهن لا يــدرك المثلّث في الــذّهن مختلفا بالماهية عن المثلّث الموجود في الواقع، فإذًا وجود المثلّث في الــذّهن أو في الواقع هو غـير مقـوّم لماهيتـه، فهو إذًا عـارض لـه، فالوجود إذًا هو غير الماهية، **إنّه عرض لها**.

إنّ الوجــود عــرض للماهية ! تلك ما هي إذًا ذلك الاستخلاص الكبير، وتلك العبارة الشّهيرة الّتي شاعت عن ابن سـينا أوّلا، ثمّ تلقّاها متكلّمة الإسـلام بعـده، **كـالفخر الرّازي**، و**القطب الرّازي**، و**سعد الدّين التّفتازاني**، و**الملاّ صـدر الـدّين الشّـيرازي**، وكـذلك قد تلقّاها لا هوتيّ المسـيحيّة، **كالقدّيس توما الإكويـني**، و**دونس سكوت**، وآثـار هـذه العبـارة ما فـتئت باقية إلى الفلسـفة الحديثة والمعاصرة [9]!

وكون الوجود عرض للماهية لا يلزم منه أنّه كـلّ ماهية فالوجود عرض لها، إذ قد يتّفق أن نجد ماهية يكون الوجود جـزء مقوّما لهـا، ولكن هـذا التّقـويم لا يكـون لها من حيث هي ماهية بـإطلاق، بل من حيث هي ماهية ما معيّنـة. نعم إذ لنا أن نقسّم الوجود تقسيما آخــر، فنقسّــمه إلى **وجود ضــروريّ**، وآخر **غــير ضــروريّ** أو ممكن، والوجــود الضّــروريّ قد نقسّــمه إلى **ضــروريّ بذاته**، و**ضــروريّ بغـيره**[10]. فالضّـروريّ بغـيره هو في أصـله ممكن بذاتـه، فذاته إذًا فقــيرة من الوجــود، وإنّما الوجــود تناله من علّة غيرهـا، فـالوجود ليس من حقيقتهـا، فهو عـارض لهـا. أمّا الموجــود الضّــروريّ بذاتــه، فهو الموجــود الّــذي **نفس حقيقته تنطـوي على وجــوده**، فوجــوده ليس له من غيره، أي أنّ نسبة الوجود إلى ماهيته كنسبة ثلاثيّة الأضلاع للمثلّث. وهذا هو الموجود الإلاهيّ، أو الماهية الإلاهيّة.

فإذًا التّفرقة بين الوجـود والماهية عند ابن سـينا يمكن أن نعتبر لها مرتبتين ظاهرتين :

1) التّفرقة بين معنى مُطْلَقِ الوجـود، ومطلق الماهيّـة، بلا تخصـيص ولا تقييـد، أي أنّ نفس معـنى الوجـود الّذي بِمُجَـرَّدِهِ إنّما يـدلّ على محض **الإنِيَّةِ** على لغة ابن سـينا، هو غـير معـنى محض كـون الشّـيء له حقيقة بما هو هو.
2) والتّفرقة بين ماهية ما معيّنـــة، وكـــون الماهية تلك موجودة، وهذه التّفرقة ليس يمكن سريانها على كلّ الماهيـات بأسـرها، وإنّما تشـذّ عنها ماهية واحـدة مخصوصة، وهي **الماهية الإلاهيّة** الّتي وإن كـانت ماهية بسيطة لا تركيب فيها، فإنّ الوجود فيها مقوّم لهـا، فلم يكن الوجـود عرضا لحقيقة اللّـه، فمن أجل ذلك كـان **وجـوده عين ماهيته**. أمّا الموجـودات الأخرى غـير اللّـه، فـإنّ وجودها غـريب عن ماهيتهـا، فهو عـرض لهـا، وهي من أجل ذلك كـانت محتاجة لعلّة موجـدة لهـا، أو مُسْـبِغَةٍ عليها الوجـود، وهـذا الوجـود لا يمكن أن تناله في آخر السّلسـلة إلاّ من موجود يكـون وجـوده غـير مسـتعار البتّة من غـيره، وهو ذلك الّذي يسمّيه ابن سينا **بواجب الوجود**.

انتهت المقالة.

<u>الملاحظات :</u>

1) أرسطو، " ما بعد الطّبيعة" ، أوّل مقالة الجيم.
2) أنظر أوكـاتف هـاملان، " نسق أرسـطو"، فصل نظريّة الوجود.(بالفرنسيّة)
3) ابن سـينا، " الشّـفاء"، كتـاب الإلاهيّـات، فصل في تحصيل موضوع هذا العلم.
4) في امتناع كون الوجود جنسـا، انظر أرسـطو،" ما بعد الطّبيعة"، مقالة الكاف، 1059 ب، سطر 25 - 1060 أ.
5) ابن سينا، " الإشارات والتّنبيهات" ، أوائل الإلاهيّات.

6) في معنى الجوهر عند أرسطو، لك أن تنظر في مقالتنا ذات العنوان " معـاني الجـوهر عند أرسـطو". مجلّة رحـاب المعرفة العدد30، نوفمبر – ديسمبر، 2002.
7) الفارابي، كتاب " الحروف"، مادّة الذّات.
8) أبو المعـالي الجويـني،" الشّـامل في أصـول الـدّين" ، باب " الشّيء ".
9) الفخر الرّازي " المباحث المشرقيّة "، القطب الـرّازي " شـرح المطـالع "، سـعد الـدّين التّفتـازاني " المقاصد "، الملاّ صدر الـدّين الشّـيرازي " الأسـفار الأربعة "، القـدّيس توما الإكويني " الماهية والوجود "، دونس سـكوت " أسـئلة .."، إدموند هوسّرل " أفكار مسـدّدة لفينومينولوجيا متعالية " وهذا يظهر في عبارة المعنى **النوّامي** الّـذي هو في ذاته خلو من كـلّ معـنى وجـودي. جـان بـول سـارتر " الوجـود والعدم "...
10) ابن سينا، " النّجاة " الإلاهيّات، المقالة الثّانية.